جيلبير الأشقر*

حذار فخ نتنياهو

تتناول هذه المقالة تصريحات رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو بشأن مسؤولية الحاج أمين الحسيني عن المحرقة النازية بحق اليهود، وتسعى لتفنيد مزاعم نتياهو التي يراد من خلالها وضع الشعب الفلسطيني في دائرة الاتهام بأنه كان ولا يزال نصيراً للنازية.

ذهلتُ كمعظم الناس لدى سماعي بـ "فلتة" بنيامين نتنياهو أمام المؤتمر الصهيوني العالمي في ٢٣ تشرين الأول / أكتوبر المنصرم، إذ بدا للعالم أجمع أن رئيس الحكومة الإسرائيلية المعروف بتطرفه الصهيوني يبرّئ أدولف هتلر من نيّة إبادة يهود أوروبا، ملقياً مسؤولية إقناع الزعيم النازي بارتكاب "المحرقة" على عاتق الحاج محمد أمين الحسيني، "الشرير" الدائم في الروايات الصهيونية عن الصراع الفلسطيني ـ الصهيوني، والعربي ـ الإسرائيلي.

ولم يكن ذهولي ناجماً قط عن اتهام نتنياهو لأمين الحسيني بالرغبة في إبادة اليهود، وهي نغمة شائعة، بل سائدة في الدعاية الصهيونية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وإنما عن تبرئة هتلر التي أثارت في وجهه موجة عارمة من الإدانة، جاء أعنفها على لسان يهود اتهموا رئيس الحكومة الإسرائيلية بإنكار المحرقة.

وتندرج نغمة اتهام أمين الحسيني في المسعى الصهيوني لتصوير الفلسطينيين أجمعين على أنهم كانوا ولا يزالون أنصاراً للنازية، يشتركون معها في العداء العرقي لليهود عامة، وفي الرغبة في إبادتهم. وقد امتدت التهمة، في الأعوام والعقود اللاحقة، إلى العرب برمّتهم ثم المسلمين، بما يدعم ادعاء الصهيونيين أن التعايش السلمي بين اليهود الإسرائيليين من جهة، والفلسطينيين / العرب / المسلمين من الجهة الأُخرى، غير ممكن، وأنه لا بديل أمام الدولة الصهيونية من تدعيم نفسها على حسابهم جميعاً، والإبقاء على استعداد دائم

* أستاذ في دراسات التنمية والعلاقات الدولية، ورئيس مركز الدراسات الفلسطينية في معهد الدراسات المشرقية والأفريقية في جامعة لندن.

للحرب ضد "أشباه النازيين" الذين يحيطون بها.

وطبعاً لم يتأخر نتنياهو في تصويب كلامه، مدركاً أنه تخطى خطاً أحمر في تبرئته لهتلر. فقد جرّه عداؤه المرَضي للفلسطينيين إلى صبّ الماء في طاحونة منكري المحرقة الغربيين الذين يجهدون في تصوير هتلر على أنه زعيم محترم وليس مجرماً عاتياً، فتراجع عن تبرئته لهتلر، لكن طبعاً، من دون أن يتراجع عن اتهامه لأمين الحسيني.

وليست الغاية من تصريح رئيس الحكومة الإسرائيلية أمام المؤتمر الصهيوني تبرئة هتلر، وهي تبرئة لا تفيده في شيء، وإنما إعادة تحريك الاهتمام بالمفتي "الشرير" كرمز للفلسطينيين. وقد ارتدّت الحيلة على المتحايل في الغرب، إذ أدت هفوة نتنياهو إلى سيل من التعليقات والمقالات تدين كلامه وتهزأ من تضخيمه الغبي لدور أمين الحسيني، وهو تضخيم كثيراً ما سعت وراءه الدعاية الصهيونية.

غير أن حيلة نتنياهو حققت بعض النجاح في الأوساط العربية، إذ تعالت عدة أصوات منتهزة فرصة كلامه ليس لإدانته هو، ولا حتى لتبرئة أمين الحسيني من تهمة حضّ هتلر على إبادة يهود أوروبا، وإنما للدفاع عن المفتي بصفته زعيماً وطنياً محترماً يجب إعادة الاعتبار إليه من الفلسطينيين والعرب معاً. والحقيقة أن هذا الموقف يشكّل وقوعاً في الفخ الذي نصبه نتنياهو، ذلك بأن أبواق الدعاية الصهيونية تقف بالمرصاد لأي دفاع عربي عن أمين الحسيني كي "تطنطن" به توكيداً لادعائها أن شخصية أمين الحسيني تمثّل الشخصية الفلسطينية والعربية خير تمثيل. ولو تم لها ما تريد، لكان ذلك شكّل انتكاسة كبيرة للفلسطينيين والعرب فيما سمّيته "حرب المرويات العربية ـ الإسرائيلية"، وهو العنوان الفرعي لكتابي: "العرب والمحرقة النازية"، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: المركز القومي للترجمة، وبيروت: دار الساقي، ٢٠١٠).

وآمل ألاّ يتحقق لنتنياهو وجماعته ما يشتهيان، فتبقى الأصوات التي أشرتُ إليها معزولة في وجه الأصوات الفلسطينية والعربية العديدة التي تعاملت مع "فلتة" نتنياهو بحكمة وذكاء بما يُفشل حيلته ويدعّم حجة الفلسطينيين والعرب في حرب المرويات. وقد استشهدتُ في كتابي باعتراف أحد المؤرخين الإسرائيليين بأن الفلسطينيين تعاملوا مع ذكرى أمين الحسيني على أنه رمز للهزيمة، ولم يجعلوا منه بطلاً يشيدون به، على خلاف تعاملهم مع أمثال عبد القادر الحسيني وعز الدين القسّام. فحتى حركة المقاومة الإسلامية "حماس" لم تقع في فخ الدفاع عن أمين الحسيني على الرغم من أيديولوجيا "الإسلام السياسي" التي تعتنقها. وفي الواقع، فإن "حماس" لم تطلق اسم أمين الحسيني على كتائبها أو صواريخها، مدركة أنها لو فعلت ذلك لأضرّت بقضيتها، ولخدمت الدعاية الصهيونية.

وهنا، لا بدّ من التذكير ببعض الوقائع التاريخية تصدّياً لمحاولة نتنياهو جرّ الفلسطينيين والعرب إلى الدفاع عن أمين الحسيني (لمزيد من التفصيلات بشأن مسألة المفتي أحيل إلى كتابي المذكور أعلاه):

أولاً، إن أمين الحسيني أصبح مفتياً للديار القدسية، بل مفتياً أكبر لفلسطين، وهو شاب في السادسة والعشرين من عمره لم يكمل دراسته للفقه الإسلامي. وجاء تعيينه في هذا المنصب من طرف المندوب السامي البريطاني في فلسطين، الصهيوني هربرت صموئيل، وهو أحد الذين سعوا

لإصدار وعد بلفور المشؤوم، لغاية سياسية جلية.

ثانياً، كان الاستعمار البريطاني، وحتى اندلاع ثورة ١٩٣٦، سخياً في تمويله المجلس الإسلامي الأعلى الذي ترأسه المفتي. فقد دعم البريطانيون أمين الحسيني على حساب أخصامه الوطنيين الفلسطينيين، وخصوصاً حزب الاستقلال العربي، وهو في المقابل خدم مصلحتهم في السعي لتوجيه السخط الفلسطيني ضد المستعمرين اليهود وحدهم دون الاستعمار البريطاني، مع أن الأخير هو الذي فسح المجال أمام تحقيق المشروع الصهيوني.

ثالثاً، بعد أن هرب أمين الحسيني من فلسطين في سنة ١٩٣٧، ثم من العراق في سنة ١٩٤١، التجأ إلى برلين وروما حيث تعاون مع النظامَين الفاشي والنازي حتى هزيمتهما في سنة ١٩٤٥. ودان سلوكه في المنفى عدد من الوطنيين الفلسطينيين والقوميين العرب، واعتبروه سلوكاً مسيئاً للنضال الفلسطيني. وكان المفتي قد نسج علاقات مع النظام الهتلري منذ وصول الأخير إلى السلطة في سنة ١٩٣٣، متغاضياً عن تعاون النازيين مع الحركة الصهيونية في تهجير اليهود الألمان إلى فلسطين، وهو تعاون وصل إلى حدّ مساعدة الأجهزة النازية للصهيونيين على خرق الحدود التي فرضها البريطانيون على الهجرة اليهودية إلى فلسطين بعد ثورة ١٩٣٦.

رابعاً، ارتكب نتنياهو تشويهاً فظاً للحقيقة التاريخية بما يتعلق بلقاء أمين الحسيني مع هتلر في سنة ١٩٤١، وهو اللقاء الوحيد الذي جمعهما طوال الأعوام الأربعة التي أمضاها المفتي في برلين، الأمر الذي يشير إلى قلة احترام هتلر له. وفحوى الحديث الذي دار بين الرجلين معروف تماماً، ولا يمتّ بصلة إلى ما زعمه نتنياهو. كما أنه لم يكن للمفتي أي دور في إبادة اليهود، وتقتصر جريمته على تحوّله إلى المروّج الأبرز للدعاية النازية الموجهة إلى العرب والمسلمين، بما فيها العداء العرقي لليهود، ولا سيما من خلال خطبه التي بثّتها الإذاعة الألمانية. وقد بذل جهداً حثيثاً لتجنيد العرب إلى جانب المحور الفاشي ـ النازي، وفشل في ذلك فشلاً ذريعاً، بل إن عدد الفلسطينيين الذين قاتلوا في صفوف الجيش البريطاني بلغ أضعاف عدد الذين التحقوا بقوات المحور، فضلاً عن العدد العظيم لأبناء بلاد المغرب الكبير الذين قاتلوا في صفوف قوات شارل ديغول، وساهموا بدمائهم في تحرير فرنسا من الاحتلال النازي. وأترك خلاصة الأمر للشهيد صلاح خلف (أبو إياد) الذي كتب في مذكراته، متحدثاً عن مبدأ التحالفات التي تخدم القضية، فقال: "وقد طبق الحاج أمين الحسيني هذا المبدأ تطبيقاً خاطئاً، حين انضم أثناء الحرب العالمية الثانية إلى ألمانيا الهتلرية، مرتكباً بذلك خطأ ندينه جميعاً بأقصى ما يمكن من شدة" [صلاح خلف (أبو إياد)، "فلسطيني بلا هوية"، تحرير فؤاد أبو حجلة (عمّان: دار الجليل، ١٩٩٦)، ص ٣٢].

خامساً، بعد أن أخذ أمين الحسيني القاهرة مقراً له في إثر عودته إلى المنطقة العربية بعد الحرب العالمية، اصطدم بجمال عبد الناصر في بداية الستينيات وانتقل إلى بيروت. وبات أمين الحسيني رمزاً من رموز الرجعية العربية، وتصدّى لمنظمة التحرير الفلسطينية التي رأى فيها منافساً لادعائه تمثيل الشعب الفلسطيني. وعقب الهزيمة العربية في سنة ١٩٦٧، تعاون مع المملكة الأردنية، وشارك أقرب معاونيه، إميل الغوري، في حكومة الأردن، واستمر وزيراً فيها على الرغم من مذبحة أيلول / سبتمبر

الأسود ١٩٧٠ التي ذهب ضحيتها آلاف من الفلسطينيين.

وإذا كان أمين الحسيني يحتل مكاناً مرموقاً في الأدبيات الصهيونية، فليس ذلك لشدة عداء الصهيونيين له، بل لأن إدانته أسهل كثيراً من إدانة أي رجل آخر بين القادة الفلسطينيين والعرب الذين تصدّوا لهم عبر التاريخ. فالتشهير بأمين الحسيني هو أسهل ما يكون، ذلك بأن استراتيجيا الدعاية الصهيونية تتركز على تصويره كأنه يمثّل الفلسطينيين والعرب تمثيلاً وافياً. وكل مَن ظنّ أنه يدحض الدعاية الصهيونية بدفاعه عن أمين الحسيني، فهو إنما يقدّم لها خدمة جليّة من دون أن يدرك، تماماً كما يفعل العرب الذين ينكرون حدوث المحرقة النازية، مساهمين بذلك في تزويد الدعاية الصهيونية بمزيد من الأدلة للتشهير بالعرب. ويكفي إلقاء نظرة سريعة على موقع إلكتروني صهيوني مميّز كموقع "ميمري" لرؤية مدى استغلال الصهيونيين للتصريحات الغبية التي تصدر عن بعض العرب.

إن التفوق الأخلاقي هو سلاح القضية الفلسطينية الأمضى، ولا بدّ، من منطلق خدمة القضية الفلسطينية، من صيانته وشحذه بدلاً من تقويضه بمحاولة إعادة الاعتبار إلى مَن لا يستحق غير الإدانة الصارمة. ■

يصدر قريباً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بين منشية يافا وجبل الخليل
يوميات الشرطي محمد عبد الهادي الشروف
(١٩٤٣ ـ ١٩٦٢)

إعداد وتحرير: أليكس ويندر
تقديم: سليم تماري